التصوف

أصول وأعلام

فضيلة الدكتور
محمد حسان عوض
عميد كلية الشريعة في جامعة دمشق

خطة البحث

المقدمة

الفصل التمهيدي:

المبحث الأول: تعريف التصوف

المبحث الثاني: نشأة التصوف ومراحل تطوره

المبحث الثالث: مصادر التصوف

المبحث الرابع: أهمية التصوف ودور الصوفية في الذب عن الشريعة الغراء

الفصل الأول: أصول التصوف ومبادئه وأهم قواعده

المبحث الأول: أصول التصوف.

المطلب الأول: **مقاصد التصوف للإمام النووي رضي الله عنه.**

المطلب الثاني: بعض قضايا التصوف.

أولاً: المعرفة

ثانياً: مجاهدة النفس

ثالثاً: الزهد والورع

رابعاً: الذكر

- حقيقة الذكر

- الأوراد عند السادة الصوفية

المبحث الثاني: عقيدة السادة الصوفية.

المبحث الثالث: اصطلاحات السادة الصوفية.

المطلب الأول: المصطلحات في كلامهم ومصنفاتهم.

المطلب الثاني: ألقاب الأولياء عند السادة الصوفية.

المطلب الثالث: المقامات والأحوال.

المبحث الرابع: الطرق الصوفية

المطلب الأول: مفهوم الطريقة عند السادة الصوفية

المطلب الثاني: دور الطرق الصوفية وأثرها في المجتمع الإسلامي

المطلب الثالث: أشهر الطرق الصوفية

المبحث الخامس: أهم قواعد التصوف.

المبحث السادس: كرامات الأولياء.

المطلب الأول: الأدب مع الأولياء وأهل العلم.

المطلب الثاني: حرمة الأولياء والعلماء وخطر التطاول عليهم.

المطلب الثالث: أسباب ظاهرة الجرأة على الصالحين والعلماء.

المطلب الرابع: كرامات الأولياء حق.

المطلب الخامس: فيما يجب أن يكون عليه الشيخ وآداب المريد.

الفصل الثاني: أعلام التصوف

1. **أبو مسلم الخولاني (٦٢ هـ).**

المطلب الأول: سيرته الشخصية والعلمية.

المطلب الثاني: مكانته وثناء العلماء عليه.

المطلب الثالث: شيوخه وتلاميذه.

المطلب الرابع: بعض أقواله.

المطلب الخامس: مؤلفاته.

2. إبراهيم بن الأدهم (١٦٢ هـ)
3. الفضيل بن عياض (١٨٧ هـ)
4. معروف الكرخي (٢٠٠ هـ)
5. أبو سليمان الداراني (٢١٥ هـ)
6. بشر الحافي (٢٢٧ هـ)
7. حاتم الأصم (٢٣٧ هـ)
8. الحارث المحاسبي (٢٤٣ هـ)
9. السري السقطي (٢٥٣ هـ)
10. أبو يزيد البسطامي (٢٦١ هـ)
11. سهل التستري (٢٨٣ هـ)

١٢. إبراهيم الخواص (٢٩١ هـ)
١٣. أبو القاسم الجنيد (٢٩٨ هـ)
١٤. الحسين بن منصور الحلاج (٣٠٩ هـ)
١٥. الحكيم الترمذي (٣٢٠ هـ)
١٦. أبو بكر الشبلي (٣٣٤ هـ)
١٧. عبد الكريم القشيري (٤٦٥هـ)
١٨. الإمام الغزالي (٥٠٥ هـ)
١٩. أرسلان الدمشقي (٥٤١ هـ)
٢٠. الشيخ عبد القادر الجيلاني (٥٦١ هـ)
٢١. الشيخ أحمد الرفاعي (٥٧٨ هـ)
٢٢. ابن الفارض (٦٣٢ هـ)
٢٣. محيي الدين بن عربي (٦٣٨ هـ)
٢٤. أبو الحسن الشاذلي (٦٥٦ هـ)
٢٥. أحمد عز الدين الصياد (٦٧٠ هـ)
٢٦. الشيخ أحمد البدوي (٦٧٥ هـ)
٢٧. الإمام النووي (٦٧٦ هـ)
٢٨. الشيخ إبراهيم الدسوقي (٦٩٦ هـ)
٢٩. ابن عطاء الله السكندري (٧٠٩ هـ)
٣٠. محمد بهاء الدين النقشبندي (٧٩١هـ)
٣١. جلال الدين السيوطي (٩١١ هـ)
٣٢. شيخ الإسلام زكريا الأنصاري (٩٢٦ هـ)
٣٣. عبد الوهاب الشعراني (٩٧٣ هـ)
٣٤. الحبيب عبد الله بن علوي الحداد (١١٣٢ هـ)

٣٥. عبد الغني النابلسي (١١٤٣ هـ)

٣٦. محمد عبد الكريم السمان (١١٨٩ هـ)

٣٧. أحمد بن عجيبة (١٢٢٤ هـ)

٣٨. جلال الدين الرومي (١٢٧٣ هـ)

٣٩. عبد القادر الجزائري (١٣٠٠ هـ)

٤٠. محمد الدندراوي المصري (١٣٢٥ هـ)

٤١. يوسف النبهاني (١٣٥٠ هـ)

٤٢. بدر الدين الحسني (١٣٥٤ هـ)

٤٣. محمد الهاشمي (١٣٨١ هـ)

٤٤. الشيخ أحمد الحارون (١٣٨٢ هـ)

٤٥. الشيخ سعيد البرهاني (١٣٨٦ هـ)

٤٦. عبد الحليم محمود (١٣٩٧ هـ)

٤٧. الشيخ ملا رمضان البوطي (١٤١٠ هـ)

٤٨. عبد القادر عيسى (١٤١٢ هـ)

٤٩. عبد الرحمن الشاغوري (١٤٢٥ هـ)

قائمة بأعلام التصوف في العالم الإسلامي المعاصر

١. الشيخ علي جمعة

٢. الشيخ حازم أبو غزالة

٣. الحبيب عمر بن حفيظ اليمني

٤. الشيخ متولي الشعراوي (١٤١٩هـ)

٥. الشيخ محمد بن علوي المالكي (١٤٢٥هـ)

٦. الشيخ يوسف الرفاعي (١٤٣٩هـ)

٧. الحبيب أبو بكر المشهور اليمني (١٤٤٤هـ)

الخاتمة

أهم المصادر والمراجع

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



الفصل التمهيدي

المبحث الأول:

تعريف التصوف

إن مما لا ريب فيه أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يَتَسَمَّ أفاضلُهم في عصرهم بتسمية عَلَمٍ سوى صحبة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم؛ إذ لا فضيلة فوقَها، فقيل لهم: «الصحابة».

ولَمَّا أدركهم أهلُ العصر الثاني سُمِّي من صحب الصحابة: «التابعين»، ورأوا ذلك أشرفَ سِمَة، ثم قيل لمن بعدهم: «أتباع التابعين».

ثم اختلفت الناس بعدهم وتباينت المراتب فيهم، فقيل لخواصِّ الناس ممَّن لهم شِدَّة عناية بأمر الدِّين: «الزُّهَّاد والعُبَّاد».

ثم ظهرت البدع، وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادَّعَوا أن فيهم زهاداً، فانفرد خواصُّ أهل السنَّة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم «الصوفية».

ثم التسمية بـ«الصوفية»، غلبت على هذه الطائفة؛ فيقال «رجل صوفي»، وللجماعة «صوفية»، لأنَّ الحقَّ صافاهم وأخلص لهم النِّعم بما أطلعهم عليه، ومن يتوصَّل إلى التصوُّف بالاكتساب والتشبُّه بهم يقال له «متصوِّف»، وللجماعة «المتصوفة».

والتصوُّف اسم جامد؛ كاللَّقب، وقع على كلِّ من اجتمع قلبه وقتَ ذكره، وتفرَّق في أحوال أسباب فكره، وتزايدت أشواقه عند السماع، وخفيت حقائقه عند الاجتماع.

ولهم فيه تعاريف كثيرة؛ لأن مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق، بل تعلم بالمنازل والمواجيد، ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال وحل تلك المقامات، وكل صوفي يعبر عما وجد، فلا يمكن حده؛ لأنه إشارات وبوادر وعطايا وهبات يعرفها أهلها.

فقيل في أصل التسمية: أنهم سُمُّوا بها لصفاء أسرارهم ونَقاء آثارهم.

وقيل: لأنَّهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجلَّ؛ أي بارتفاع هممهم إليه وإقبالهم بقلوبهم عليه.

وقيل: لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصُّفَّة.

وقيل: لغلبة لبس الصوف على أهله؛ كالمرقعات، وحكمتها كما ذكره الإمام الشعراني رضي الله عنه: أنهم لا يجدون ثوباً كاملاً من الحلال؛ بل قطعاً قطعاً.

والقول بأنه مشتقٌّ من الصَّفا، أو من لبس الصوف، أو من الصف الأوَّل؛ يُحْوِجُ إلى تكلُّف، مع عدم الشاهد على ذلك في معظم الأقوال؛ وإن كان معانيها لا يخلو عنها الصوفي باعتبار رسمه وحاله.
واعلم أن حقيقة الصوفيِّ: من له جدٌّ وصدق وإخلاص في متابعة سيِّد المرسلين وإمام المرشدين؛ عليه وعلى إخوانه صلوات ربِّ العالمين.

ويقول الإمام تاج الدين السبكي رحمه الله تعالى: (الصوفية: حياهم الله وبياهم، وجمعنا في الجنة نحن وإياهم.
وقد تشعبت الأقوال فيهم تشعباً ناشئاً عن الجهل بحقيقتهم؛ لكثرة المتلبسين بها بحيث قال الشيخ أبو محمد الجويني: لا يصح الوقف عليهم؛ لأنه لا حد لهم يعرف؛ والصحيح صحته، وأنهم المعرضون عن الدنيا، المشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة؛ ومن ثم قال الجنيد: التصوف استعمال كل خلق سَني، وترك كل خلق دني؛ وقال أبو بكر الشبلي: التصوف ضبط حواسك، ومراعاة أنفاسك، وقال ذو النون: الصوفي من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق، وإذا سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق؛ وقال علي بن بندار: التصوف إسقاط رؤية الخلق ظاهرا وباطنا: وقال أبو علي الروذباري: الصوفي من لبس الصوف على الصفا، وأذاق الهوى طعم الجفا، ولزم طريق المصطفى، وكانت الدنيا منه على القفا. وكان الشيخ الإمام يقول: الصوفي من لزم الصدق مع الحق، والخلق مع الخلق، وينشد:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا ... قدما، وظنوه مشتقا من الصوف

ولست أنحل هذا الاسم غير فتى ... صافي فصوفي، حتى لقب الصوفي

وهذه عبارات متقاربة.

والحاصل أنهم أهل الله وخاصته، الذين ترتجى الرحمة بذكرهم، ويستننزل الغيث بدعائهم؛ فرضي الله عنهم وعنا بهم!)[1].

وإن مما اتفق عليه العلماء من قواعد تقررت لديهم .. أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى وزيادة عناية به، لهذا كثرت أسماء الله تبارك وتعالى، وأسماء النبي صلى الله عليه وسلم، وبعض البلدان كالمدينة المنورة ومكة المكرمة والشام المحروسة وهكذا[2]..، ولعلنا لا نبعد عما قرره العلماء إذا قلنا أن التصوف قد انطبقت عليه هذه القاعدة في كثرة تعريفاته حتى أوصلها بعضهم إلى ألف تعريف أو أكثر[3]، ولا يقل الاختلاف في تعريف التصوف عن الاختلاف في أصله واشتقاقه، حتى أصبح البحث في معنى التصوف ومفهومه لغةً واصطلاحاً باباً واسعاً تنقضي في غمراته الأزمان وتجف دونه الأقلام ولا ينتهي.

لذا تجد أغلب من صنف أو كتب عن مفهوم التصوف ساق تنازع الآراء المتعددة، والتعريفات، والأصل الاشتقاقي اللغوي، ومن أين جاءت هذه الكلمة، وإلى ماذا تنسب، وقد وجدنا من المناسب لهذا البحث المختصر أن نتجاوز تلك التفاصيل المتشعبة ونقتحم تلك الميادين لنستخلص منها تعريفاً جامعاً لتلك التعاريف قدر الإمكان، ويمكن أن يعبر عما استقر إليه علم التصوف، فنقول:

التصوف: (**علم بأصول يعرف بها صلاح القلب وسائر الحواس**).

أو بعبارة أخرى أقرب: (**هو امتثال آداب الشرع الظاهرة والباطنة**).

---

(١) ينظر «اللمع» للطوسي (ص٤٥)، «التعرف لمذهب أهل التصوف» (ص٢١، ٨٧)، «الرسالة القشيرية» (ص٥٨٤)، «عوارف المعارف» (ص٥٤)، «معيد النعم ومبيد النقم» (ص٩٣)، «شرح شيخ الإسلام على الرسالة» مع حاشية العروسي (٤/ ٣)، «حاشية شيخ الإسلام على شرح جمع الجوامع» (٤/ ٢٨٥)، «إيقاظ الهمم» (ص٧)، «حاشية الأمير على شرح إتحاف المريد» (ص٣١٧)، «تاج العروس» مادة (ص و ف)، «منتهى السول» (١/ ١٤٤)، «الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام» (ص١٢).

(٢) ينظر «تهذيب الأسماء واللغات» للإمام النووي (٤/ ١٥٧).

(٣) ينظر «عوارف المعارف» للسهروردي (ص٥٧)، «قواعد التصوف» (ص٢١).

فبهذا التعريف تنتظم جميع أنواع الكمالات التي ينبغي أن يكون عليها المكلف؛ من رفض الموانع والشواغل العائقة عن الوصول إلى الحق في عقده، وقوله، وفعله، وخلُقه، ومخالطته لأبناء جنسه، ومعاملاته، وسائر تصرفاته، وتقلباته، وجميع حركاته، وسكناته، وخلوته، وجلوته، وذاته، وهيئته، وبغضه، ومحبته، وزهده، ورغبته، ظاهرةً كانت تلك الحوال أو باطنةً، مختصة به أو مشتركة بينه وبين غيره، ولو بهيمةً وكافراً، كالأخلاق والأحوال التي كان عليها خيار الخلق وأفضل الناس وهم الأنبياء، أو الخيار المطلق وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ إذ جمع ما تفرق في الجميع، أو من ثبتت له الخيرية ولو نسبية؛ من العلماء والشهداء والأولياء والورعين والزاهدين والعابدين.

وموضوعه: أفعال القلب والحواس.

وفائدته: إصلاح أحوال الإنسان ظاهراً وباطناً، والحقُّ أن التصوف ثمرة جميع علوم الشريعة وآلاتها إلا أنه قواعد مخصوصة تدون[1].

---

(١) ينظر «حاشية شيخ الإسلام على شرح جمع الجوامع» (٤/ ٢٨٥) بتحقيق مرتضى الداغستاني رحمه الله تعالى، «هداية المريد» (ص١٣٢ ، ١٣٥٥)، «عمدة المريد» (٤/ ٢١٩٨)، «حاشية الأمير على شرح إتحاف المريد» (ص٣١٧)، «تحفة المريد» (ص٣٤٠).

المبحث الثاني:

نشأة التصوف

ومراحل تطوره

لا شك أن علم التصوف مرَّ بعدة مراحل وأدوار تاريخية كما هو الحال في باقي العلوم الإسلامية التي غرست أصولها في عصر النبوة، وتأصلت في عصر الصحابة والتابعين، وآتت أكلها في العصور اللاحقة، وكل مرحلة كانت تمتاز بخصائص وشخصيات لمعت فيها وكان لها التأثير البالغ في عصرها، كما أنَّ كل دور كان مؤسساً لما بعده في بنيان هذا العلم إلى أن اتضحت معالمه وشيِّدت قوائمه.

ثم إن التصوف كان امتداداً لحركة الزهد في القرنين الأولين، وقد تكاثرت النصوص من القرآن الكريم والسنة المطهرة في الحثِّ على الزهد؛ ومن ذلك قول الله تبارك وتعالى:

﴿وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾ [الذريات٥٦ ،٥٧]

وهذا تصريح بأنهم خلقوا للعبادة، فحق عليهم الاعتناء بما خلقوا له والإعراض عن حظوظ الدنيا بالزهادة؛ فإنها دار نفاد لا محل إخلاد، ومركب عبور لا منزل حبور، ومشرع انفصام لا موطن دوام. فلهذا كان الأيقاظ من أهلها هم العباد وأعقل الناس فيها هم الزهاد.

وجاء في السنة الشريفة:
عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، وجلسنا حوله. فقال: «إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها» متفق عليه.
وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله تعالى مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء» رواه مسلم.
وعن سيدنا أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» متفق عليه[1].

---

(١) ينظر «رياض الصالحين» (ص ١٧٣،٢٧).

وبهذا يظهر لنا أن الزهد إسلامي النشأة والمهد، وعرف أهله بـ (الزّهاد والعبَّاد والنسَّاك والبكائين..)، وإذا كان التصوف هو ما كان عليه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ومن تربى بين يديهم وتحت أنظارهم مستمداً من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم؛ فهو أمرٌ ثابتٌ عن الشارع بتقريره، ولم يبقى البحث إلا في التسمية، وهو أمر اصطلاحي لا مدخل للإنكار فيه، إذ هي من عوارض الألفاظ، على أن لفظ التصوف ليس مستحدثاً كما زعم بعضهم، وفي هذا يقول السراج الطوسي رحمه الله تعالى:

(إن سأل سائل فقال: لم نسمع بذكر الصوفية في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم أجمعين، ولا فيمن كان بعدهم، ولا نعرف إلا العبَّاد والزُّهاد والسيَّاحين والفقراء، وما قيل لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: صوفي؛ فنقول وبالله التوفيق:

الصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لها حرمة، وتخصيص من شمله ذلك، فلا يجوز أن يعلق عليه اسم على أنه أشرف من الصحبة، وذلك لشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرمته، ألا ترى أنهم أئمة الزهاد والعباد والمتوكلين والفقراء والراضين والصابرين والمخبتين وغير ذلك، وما نالوا جميع ما نالوا إلا ببركة الصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما نسبوا إلى الصحبة والتي هي أجل الأحوال استحال أن يفضلوا بفضيلة غير الصحبة التي هي أجل الأحوال وبالله التوفيق.

وأما قول القائل: إنه اسم محدث أحدثه البغداديون، فمحال؛ لأن في وقت الحسن البصري رحمه الله كان يعرف هذا الاسم، وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم، وقد رُوي عنه أنه قال: رأيت صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال: معي أربعة دوانيق يكفيني ما معي.

وروي عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال: لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء، وقد ذكر الكتاب الذي جُمع فيه أخبار مكة عن محمد بن إسحاق بن يسار، وعن غيره يذكر فيه حديثاً: أنه قبل الإسلام قد خلت مكة في وقت من الأوقات، حتى كان لا يطوف بالبيت أحد، وكان يجيء من بلد بعيد

رجل صوفي فيطوف بالبيت وينصرف، فإن صح ذلك فإنه يدل على أنه قبل الإسلام كان يعرف هذا الاسم، وكان يُنسب إليه أهل الفضل والصلاح، والله أعلم)

ويقول الإمام عبد القاهر البغدادي رحمه الله تعالى:

(الزهاد الصُّوفِيَّة الذين أبصروا فاقصروا، واختبروا فاعتبروا، وَرَضوا بالمقدور وقنعوا بالميسور، وَعَلمُوا أن السَّمع والبصَر والفؤاد كل أولئك مسئول عن الخير والشَّر، ومحاسب على مَثَاقِيل الذَّر؛ فاعدوا خير الاعتداد ليوم المعاد، وجرى كلامهم في طريقي العبارة والإشارة على سمت أهل الحديث دون من يشترى لهو الحديث، لا يعملون الخير رياءً، ولا يتركونه حياءً، دينهم التَّوحيد ونفي التَّشبيه، ومذهبهم التَّفويض إلى الله تعالى والتوكل عليه والتَّسليم لأمره، والقناعة بما رزقوا والإعراض عن الاعتراض عليه ﴿ذَلِك فضل الله يؤتيه من يَشَاء وَالله ذُو الْفضل الْعَظِيم﴾)[1].

وفيما يلي سردٌ موجزٌ لتلك المراحل:

- **المرحلة الأولى** (القرن الأول والثاني الهجري):

تجلت هذه المرحلة في كونها نشأت تحت تأثير النبع الصافي من كلام الله تبارك وتعالى والسنة النبوية الشريفة وقرب عهدها بهذا المعين التي انبثقت عنه تلك التعاليم الإسلامية التي تدعو إلى الزهد والعبادة والغربة في هذه الدنيا والنظر إلى الآخرة بالجد والسعي إليها، وتمثلت هذه القيم والأخلاق بحياة سيد الوجود الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام رضوان الله تعالى عليهم ومن تربى على يديهم وبتوجيهاتهم، إليك صور من ذلك:

---

(١) ينظر «اللمع» (ص٢٤)، «الفرق بين الفرق» (ص٣٠٣) «الرسالة القشيرية» (ص ٥٨٤)، «عوارف المعارف» (ص ٦٣)، «مقدمة ابن خلدون» (ص ٤٧٦)، «الفتوحات الإلهية شرح المباحث الأصلية» (ص ٥٢).

❋ صور من حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم:

أخرج ابن ماجه بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على حصير. قال: فجلست فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه. وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، وقرظ في ناحية في الغرفة، وإذا إهاب معلق، فابتدرت عيناي، فقال: «ما يبكيك يا ابن الخطاب؟» فقال: يا نبي الله وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار وأنت نبي الله وصفوته وهذه خزانتك قال: «يا ابن الخطاب، أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟».

وأخرج البيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت علي إمرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم قطيفة مثنية، فبعثت إلي بفراش حشوه الصوف، فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ما هذا يا عائشة؟» قالت: قلت: يا رسول الله، فلانة الأنصارية دخلت فرأت فراشك، فذهبت فبعثت إلي بهذا، فقال: «رديه يا عائشة، فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة».

❋ صور من حياة الرعيل الأول الصحابة رضي الله عنهم والأجيال التي نهلت من سَمْتهم:

أخرج البزار عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كنا مع أبي بكر رضي الله عنه فاستسقى، فأتي بماء وعسل، فلما وضعه على يده بكى وانتحب حتى ظننا أن به شيئا ولا نسأله عن شيء، فلما فرغ قلنا: يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حملك على هذا البكاء؟ قال: بينما أنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ رأيته يدفع عن نفسه شيئا ولا أرى شيئا، فقلت: يا رسول الله ما الذي أراك تدفع ولا أرى شيئا؟ قال «الدنيا تطولت لي فقلت: إليك عني، فقالت: أما إنك لست بمدركي» ؛ قال أبو بكر: فشق علي، وخشيت أن أكون قد خالفت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولحقتني الدنيا.

وأخرج عبد الرزاق وابن عساكر عن عكرمة بن خالد أن حفصة، وابن مطيع، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم كلموا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالوا: لو أكلت طعاما طيبا كان أقوى لك على الحق، فقال: قد علمت أنه ليس منكم إلا ناصح، ولكني تركت صاحبي - يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضي الله عنه - على جادة فإن تركت جادتهما لم أدركهما في المنزل.

أخرج أبو نعيم في الحلية عن عبد الملك بن شداد قال: رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه يوم الجمعة على المنبر عليه إزار عدني غليظ ثمنه أربعة دراهم أو خمسة دراهم، وريطة كوفية ممشقة.

أخرج أبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن شريك عن جده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه أتي بفالوذج فوضع قدامه بين يديه، فقال: إنك طيب الريح، حسن اللون، طيب الطعم؛ لكن أكره أن أعود نفسي ما لم تعتده.

وأخرج الترمذي عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال: (ما كانت عائشة أم المؤمنين تستجد ثوباً حتى ترقع ثوبها وتنكسه. قال: ولقد جاءها يوماً من عند معاوية ثمانون ألفاً، فما أمسى عندها درهم، قالت لها جاريتها: فهلا اشتريت لنا منه لحما بدرهم؟. قالت: (لو ذكرتني لفعلت).

وقال الحسن البصري رضي الله عنه: (أدركت أقواماً وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يأسفون على شيء منها أدبر، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب، كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطوله ثوب، ولم ينصب له قدر، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئاً، ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم يفترشون وجوههم تجري دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكاك رقابهم كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها وسألوا الله أن يقبلها وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم فلم يزالوا على ذلك ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة رحمة الله عليهم ورضوانه)[1].

---

(١) ينظر «إتحاف السادة المتقين» (٩/ ٣٣٧).

وهكذا فلقد وعى سلفنا الصالح تلك المعاني، وقدروها حق قدرها، فترجموها إلى مواقف مشرفة نقل التاريخ لنا كثيراً منها، مما جعل من حياتهم المنهج القويم العملي للقرآن الكريم والسنة النبوية، والقدوة المثلى لمن بعدهم، فأسست لحركة أخلاقية ربانية منتظمة أطلق عليها «التصوف».

- **المرحلة الثانية** (القرن الثالث والرابع والخامس الهجري):

في هذه المرحلة بدأت تتجلى حياة الرعيل الأول على من بعدهم بشكل قواعد ومواضيع تُبحث ضمن علم تَقَرَّر ومعالم بدأت تتكون، تدور على ألسنة العلماء وصحائفهم باسم: التصوف، كما هو حال نشأة المعرفة والعلوم ثم مراحل التقعيد والتدوين، ومن ثم أدوار التحقيق والتدقيق والتنميق امتداداً في الترف العلمي في بحث الموضوعات المترامية الأطراف، فوجد وتأسس علمٌ رصين في ضوابطه، شريفٌ في قواعده، أصيلٌ في نسبه ومصدره، ضارباً لنفسه من كل مصدر من مصادر الشريعة الإسلامية بسهم.

ففي هذه المرحلة بدأت تظهر المصنفات المستقلة في هذا العلم ومواضيعه، ومن ذلك:

مصنفات الحارث المحاسبي (ت: ٢٤٣ هـ)، وابن أبي الدنيا (ت: ٢٨١ هـ)، والجنيد (ت: ٢٩٧ هـ)، والحكيم الترمذي (ت: ٣٢٠ هـ)، والسراج الطوسي (ت: ٣٧٨ هـ)، والكلاباذي (ت: ٣٨٠ هـ)، وأبي طالب المكي (ت: ٤١٢ هـ)، والسُّلمي (ت: ٤١٢ هـ)، وأبي نعيم الأصبهاني (ت: ٤٣٠ هـ)، والبيهقي (ت: ٤٥٨)، والقشيري (ت: ٤٦٥ هـ).

- **المرحلة الثالثة** (أواخر القرن الخامس وما بعده الهجري):

إن جميع تلك المراحل انصبت في قالب جديد ألبس هذا العلم حُلة الجلال والبهاء وذلك بسبك سبائكه على يد العالم النحرير حجة الإسلام الإمام المجتهد محمد بن محمد الغزالي رضي الله عنه (ت: ٥٠٥ هـ)، حيث كان طوداً شامخاً من العلوم، بل بحراً انتهت إليه جميع الأنهر، فقد عمد إلى جملة العلوم فنظمها في عقدٍ فريدٍ بديعٍ، أغرى به طلاب العلم والعلماء الجهابذة، وكان من نصيب علم التصوف منه الحظ الأوفر والمتأخر عن ممارسته لجميع العلوم، مما هيأ له استخلاص الجواهر النفيسة من مناجمها، حيث سخر لذلك ما احتواه من علوم وآلات، فبدأ علم التصوف بذلك يأخذ مكانه بين العلوم استقراراً وتحريراً وتهذيباً، وظهرت مصنفات الإمام الغزالي فيه ناضجة قريبة التناول كأي علم من علوم الشريعة المطهرة، وكان على ذروة سنمها «إحياء علوم الدين» الكتاب الذي اتفق العلماء بعده أنه لم يصنف في الإسلام مثله، حتى قيل لو ضاعت كتب العلوم كلها لأغنى عنها، وهكذا أصبح أهم مرجع في علم التصوف، مع ضبط قواعده، وتدليل أصوله، وتهذيب فصوله، فألقم الحجة لكل معترض ممتعض، ونافح عن علوم القوم في كثير من كتبه، فبين طريقهم، وأوضح أعلامهم، وزيف مدعيهم، قال رضي الله عنه:

(إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به.

وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة؛ استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله؟!

وهذا آخرها بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها، وهي على التحقيق أول الطريقة، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك إليه.

ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء ويسمعون أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال، إلى درجات يضيق عنها النطق)[1].

ويقول أيضاً رضي الله عنه:

(اعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل، والمدعي فيه كثير، ونحن نعرفك علامتين تجعلهما أمام عينيك، وتعتبر بهما نفسك وغيرك.

فالعلامة الأولى: أن يكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع، موقوفة على حد توقيفاته، إيراداً وإصداراً، وإقداماً وإحجاماً، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل، إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة، كلها ولا يمكن ذلك إلا بعد تهذيب الأخلاق، كما وصفنا من قبل، ولا يتوصل إلى ذلك إلا إذا ترك جملة من المباحات، فكيف يتأتى لمن لم يهجر المحظورات؟

ولا يتوصل إليه ما لم يواظب على جملة من النوافل، فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض؟

فإن قلت: هل تنتهي رتبة السالك إلى حد ينحط عنه بعض وظائف العبادات، ولا يضره بعض المحظورات، كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل في هذه الأمور؟

---

(١) ينظر «المنقذ من الضلال» (ص١٧٧).

فاعلم أن هذا عين الغرور، وأن المحققين قالوا: لو رأيت إنساناً يمشي على الماء، وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع، فاعلم أنه شيطان، وهو الحق.

العلامة الثانية: أن يكون حاضر القلب مع الله، في كل حال حضوراً ضرورياً غير متكلف، بل حضوراً يعظم تلذذه، وأن يكون الحضور انكسار أو ضراعة وخضوعاً؛ لما انكشف عنده من جلال الله وبهائه، ولا يفارق ذلك في أطواره وأحواله، وإن اشتغل بضروريات بدنه من تناول طعام، وقضاء حاجة، وغسل ثوب وغيره.

بل يكون مثاله في جميع الأحوال مثال عاشقٍ، سهر في انتظار معشوقه مدة، وتعب فيه زماناً، ثم قدم عليه معشوقه فاستبشر به، فاستولى عليه قضاء حاجته فلزمه ضرورة مفارقته، وقصد بيت الماء، فيفارقه ببدنه مضطراً، والقلب حاضراً عنده حضوراً، لو خوطب في أثناء ما هو فيه لم يسمعه لشدة استغراق فكره بمعشوقه، ولا يكون ما هو فيه صارفاً عن قرَّة عينه، وهو مكره فيه.

فالسالك ينبغي أن يكون كذلك في أشغاله الدنيوية، بل لا يكون له شغل سوى ضروريات بدنه، وهو في ذلك مصروف القلب إلى الله عز وجل، مع غاية الإجلال والتواضع)[1].

وبهذه العبارات الجليلة وتلك المصنفات الدقيقة، المنضبطة بقواعد أصيلة .. استقر علم التصوف، وتكونت ملامح شخصيته، وسرت عروق هذا العلم في علوم الشريعة مستمداً منها شريعيته وأدلته، كما انعكس أيضاً هو على تلك العلوم بصبغة لا تنفك عنها، فأمسى هذا العلم مستقلاً بنفسه، تذخر المكتبة الإسلامية وتفخر به من خلال مصنفات لا تحصى كثرةً كغيره من العلوم، وعلماء أعلام لبسوا ثوبه، ونزلوا تحت منهجه الشريف، حتى وضعت مؤلفات خاصة بطبقات علماء الصوفية رضي الله عنهم.

---

(١) ينظر «ميزان العمل» (ص ٤٠٠).

المبحث الثالث:



مصادر التصوف

وأما استمداده: فهو مستمد من الكتاب والسنة وإلهامات الصالحين وفتوحات العارفين، وقد أدخلوا فيه أشياء من علم الفقه لمس الحاجة إليه في علم التصوف حررها الإمام الغزالي رضي الله عنه في «إحياء علوم الدين» في أربعة كتب: كتاب العبادات وكتاب العادات وكتاب المهلكات وكتاب المنجيات.

ومن طالعه واستعرض فصوله .. وجد أن جميع أبوابه تعتمد على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وآثار الصحابة والتابعين وقصصهم وأحوالهم.

قال الإمام الجنيد رضي الله عنه: (من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث .. لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة).

وقال: (علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم).

وقال قد حرر أبو إسحاق الشاطبي رضي الله عنه هذه المسألة فقال: (كل ما عمل به المتصوفة المعتبرون في هذا الشأن لا يخلو: إما أن يكون مما ثبت له أصل في الشريعة أم لا.

فإن كان له أصل؛ فهم خلقاء به؛ كما أن السلف من الصحابة والتابعين خلقاء بذلك.

وإن لم يكن له أصل في الشريعة؛ فلا عمل عليه؛ لأن السنة حجة على جميع الأمة، وليس عمل أحد من الأمة حجة على السنة؛ لأن السنة معصومة عن الخطأ وصاحبها معصوم، وسائر الأمة لم تثبت لهم عصمة، إلا مع إجماعهم خاصة، وإذا اجتمعوا؛ تضمن اجتماعهم دليلاً شرعياً كما تقدم التنبيه عليه.

فالصوفية كغيرهم ممن لم تثبت له العصمة، فيجوز عليهم الخطأ والنسيان والمعصية كبيرتها وصغيرتها، فأعمالهم لا تعدو الأمرين.

ولذلك قال العلماء: كل كلام منه مأخوذ أو متروك إلا ما كان من كلام النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد قرر ذلك القشيري أحسن تقرير، فقال: فإن قيل: فهل يكون الولي معصوماً حتى لا يصرَّ على الذنوب؟

قيل: أما وجوباً كما يقال في الأنبياء؛ فلا، وأما أن يكون محفوظاً حتى لا يصرَّ على الذنوب - وإن حصلت منهم آفات أو زلات -؛ فلا يمتنع ذلك في وصفهم.

قال: لقد قيل للجنيد: العارف بربه يزني؟ فأطرق ملياً، ثم رفع رأسه، وقال: وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

فهذا كلام منصف، فكما يجوز على غيرهم المعاصي بالابتداع وغيره؛ كذلك يجوز عليهم.

فالواجب علينا أن نقف مع الاقتداء بمن يمتنع عليه الخطأ، ونقف على الاقتداء بمن لا يمتنع عليه الخطأ إذا ظهر في الاقتداء به إشكال، بل نعرض ما جاء عن الأئمة على الكتاب والسنة، فما قبلاه؛ قبلناه، وما لم يقبلاه؛ تركناه ولا علينا إذ قام لنا الدليل على اتباع الشرع ولم يقم لنا دليل على اتباع أقوال الصوفية وأعمالهم إلا بعد عرضها، وبذلك وصى شيوخهم، وإن كان ما جاء به صاحب الوجد والذوق من الأحوال والعلوم والفهوم؛ فليعرض على الكتاب والسنة، فإن قبلاه؛ صح، وإلا؛ لم يصح، فكذلك ما رسموه من الأعمال وأوجه المجاهدات وأنواع الالتزامات.

- ثم نقول ثانياً: إذا نظرنا في رسومهم التي حدوا، وأعمالهم التي امتازوا بها عن غيرهم بحسب تحسين الظن والتماس أحسن المخارج ولم نعرف لها مخرجاً؛ فالواجب علينا التوقف عن الاقتداء والعمل بها، وإن كانوا من جنس من يقتدى بهم، لا ردا لهم واعتراضا، بل لأنا لم نفهم وجه رجوعه إلى القواعد الشرعية؛ كما فهمنا غيره، ألا ترى أنا نتوقف عن العمل بالأحاديث النبوية التي يشكل علينا وجه الفقه فيها؟ فإن سنح بعد ذلك للعمل بها وجه جار على الأدلة قبلناه، وإلا؛ فلسنا بمطلوبين بذلك، ولا ضرر علينا في التوقف؛ لأنه توقف مسترشد، لا توقف راد مطرح، فالتوقف هنا بترك العمل أولى وأحرى.

ثم نقول ثالثاً: إن هذه المسائل وأشباهها قد صارت مع ظاهر الشريعة كالمتدافعة، فيحمل كلام الصوفية وأعمالهم مثلاً على أنها مستندة إلى دلائل شرعية؛ إلا أنه عارضها في النقل أدلة أوضح في أفهام المتفقهين وأنظار المجتهدين، وأجرى على المعهود في سائر أصناف العلماء، وأنظر في ألفاظ الشارع مما ظنناه مستند القوم، وإذا تعارضت الأدلة ولم يظهر في بعضها نسخ؛ فالواجب الترجيح، وهو إجماع من الأصوليين أو كالإجماع، وفي مذهب القوم العمل بالاحتياط هو الواجب - كما أنه مذهب غيرهم -، فوجب بحسب الجريان على آرائهم في السلوك أن لا يعمل بما رسموه مما فيه معارضة لأدلة الشرع، ونكون في ذلك متبعين لآثارهم، مهتدين بأنوارهم؛ خلافاً لمن يعرض عن الأدلة، ويصمم على تقليدهم فيما لا يصح تقليدهم فيه على مذهبهم، فالأدلة والأنظار الفقهية والرسوم الصوفية ترده وتذمه، وتحمد من تحرى واحتاط وتوقف عند الاشتباه واستبرأ لدينه وعرضه.

وبقي الكلام على أعيان ما ذكر في السؤال من أقوالهم وعوائدهم، وما يتنزل منها على مقتضى الأدلة، وكيف وجه تنزيلها؟ ولا حاجة لنا إليه في هذا الموضع، وقد بسط الكلام على جملة منها في كتاب «الموافقات»، وإن فسح الله في المدة، وأعان بفضله؛ بسطنا الكلام في هذا الباب في كتاب مذهب أهل التصوف، وبيان ما أدخل فيه مما ليس بطريق لهم، والله الموفق للصواب)[1].

وقد ذكر الإمام عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه في كتابه «الدرر المنثورة في بيان زبد العلوم المشهورة» ما نصه:

(وأمَّا زبدة علم التصوف الذي وضع القوم فيه رسائلهم؛ فهو نتيجةُ العمل بالكتاب والسنة، فمَنْ عملَ بما عَلِمَ تكلَّم كما تكلموا، وصار جميع ما قالوه بعض ما عنده؛ لأنه كلما ترقى العبد في باب الأدب مع الله تعالى دقَّ كلامه على الأفهام، حتى قال بعضهم لشيخه: إنَّ كلام أخي فلان يدقُّ على فهمي، فقال: لأنَّ لك قميصين، وله قميص واحد فهو أعلى مرتبة منك، وهذا هو الذي دعا الفقهاء ونحوهم من أهل الحجاب إلى تسمية علم الصوفية بعلم الباطن، وليس ذلك بباطن، إذ الباطن إنما هو علم الله تعالى، وأمَّا جميع ما علمه الخلق على اختلاف طبقاتهم فهو من علم الظاهر؛ لأنه ظهر للخلق، فاعلم ذلك).

ويقول الإمام الشعراني أيضاً: (وكان شيخنا سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: إن طريق القوم رضي الله عنهم محررة على الكتاب والسنة تحرير الذهب والجوهر؛ وذلك لأن لهم في كل حركة وسكون نية صالحة بميزان شرعي، ولا يعرف ذلك إلا من تبحر في علوم الشريعة.

قلت: فكذب والله وافترى من يقول: إن طريق الصوفية لم يأت بها كتاب ولا سنة، وقوله ذلك من أكبر العلامات الدالة على كثرة جهله، فإن حقيقة الصوفي عند القوم: هو عالم عمل بعلمه على وجه الإخلاص لا غير، وغاية ما يطلبه القوم من تلامذتهم بالمجاهدات بالصوم والسهر والعزلة والصمت والورع والزهد وغير ذلك أن يصير أحدهم يأتي بالعبادات على الوجه الذي يشبه ما كان عليه سلفهم الصالح لا

---

(١) ينظر «الاعتصام» (١/ ٣٦٦)، «الفتوحات الإلهية» (ص ٥٨).

غير، ولكن لما اندرست طريق السلف باندراس العاملين بها ظن بعض الناس أنها خارجة عن الشريعة لقلة من يتخلق بصفات أهلها كما بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنهج المبين في بيان أخلاق العارفين»؛ فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين).

ومما أسلفنا يتبن لنا أن علم التصوف أسسه الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين المحمدي، إذ هو بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبي صلى الله عليه وسلم بعدما بينها واحداً واحداً ..ديناً فقال: «**هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم**»[1].

وفي ذلك يقول الفقيه الصوفي ابن البنا السرقسطي رحمه الله تعالى (ت: ٨٢١ هـ) في منظومته في التصوف «المباحث الأصلية»:

فقادة الصوفي أهل الصفة ... في زمن الرسول فاعلم وصفه
وهم ضياف الله والإسلام ... وجلساء سيد الأنام
كانوا على التجريد عاملين ... وعن سوى الرحمن معرضين
تخلقوا بخلق النبي ... يدعون بالغداة والعشي
قد فهموا مقتضيات الشرع ... فصيروا الفرق لعين الجمع
قد خرجوا لله عما اكتسبوا ... فكل صوفي إليهم ينسب
إذن فشأن القوم ليس محدثا ... بل كان أحوى فوجدناه غثا
فاسلك طريق القوم تلق يمنه ... إذ الكتاب قيده والسنة

* * *

(١) ينظر «تنبيه المغترين» (ص٢١)، «إيقاظ الهمم» (ص٧)، «روح المعاني» (٣/٣٥٦)، «الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام» (ص١٢).


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المبحث الرابع:

أهمية التصوف

ودور الصوفية في الذب عن الشريعة الغراء

التصوف السليم جوهر الإسلام ولبُّه[1]

بقطع النظر عن كلمة «التصوف» وما دار من جدل حول معناها وأصلها، وحول مدى مشروعية التعبير بها عن مضمونٍ لم يظهر لكثير من الناس مدى علاقته بالإسلام، سواء في مبادئه الأساسية أو جوانبه الكمالية والتحسينية - فإن من الأهمية بمكان أن نتبيّن المعنى المراد بهذه الكلمة، ثم نتبين العلاقة الدقيقة بينه (أي بين التصوف)، وبين حقيقة الإسلام.

ذلك لأننا إن أدركنا هذه العلاقة من خلال موضوعية علمية متحررة، كان بوسعنا، بل ترتب علينا أن نجعل من هذه العلاقة ميزاناً يكشف عن مدى شرعية هذا المضمون أو عدم شرعيته، ما دمنا نتخذ بصدق من الإسلام محور التزاماتنا الفكرية والسلوكية على السواء.

ولعل أجمع ما يكشف عن المعنى المراد بكلمة التصوف، ومن ثم يوضح العلاقة بينه وبين حقيقة الإسلام، يتمثل في عرض الحقيقة التالية:

إن قيمة التزام المسلم بالإسلام، تظهر على صعيدين اثنين، قد يتضافران أو يجتمعان، وقد ينفك الواحد منهما عن الآخر:

-أما الصعيد الأول: فهو الساحة الدنيوية التي يتجلّى فيها تعامل الناس بعضهم مع بعض، ومن المعروف أن الإنسان يجب أن يعامَلَ على أنه مسلم، من كل الجوانب، بمجرد أن يتوافر أركان الإسلام في ظاهر أقواله وأفعاله، بأن ينطق بشهادة الإسلام، ويذعن لأركانه العملية، ولا يبدو منه في الظاهر ما يدّل على إنكاره وتأبيه لشيء منها، كما توصف طاعاته وعبادته جميعاً بالصحة والقبول، ما دامت هي الظاهر كذلك. أي فليس لقاضٍ أن يتهم مسلماً بخلاف ما قد ظهر منه من الاستقامة في السلوك وصحة الطاعات والعقود. دليل ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما رواه مسلم بسنده عن أم سلمة أنه صلى الله عليه وسلم

---

(١) ينظر «قضايا ساخنة» للإمام البوطي رحمه الله تعالى (ص٣٦١).

سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم ، فقال: «إنما أنا بشر ، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صادق، فأقضي له».

وفي رواية: «فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار، فليحملها أو ليذرها».

-الصعيد الثاني: وأقول قبل بيانه إننا يجب أن نعلم أن هذا الحكم القضائي، في نطاق التعامل في دار الدنيا، ليس بالضرورة المقياس الدال على الحكم الأخروي الذي سيقضي به الله عزوجل بين عباده في الدار الآخرة. بل إن لذلك القضاء مقياساً آخر.

فالصعيد الثاني إذن إنما هو صفاء القصد وإخلاص القلب وموافقة الظاهر الذي كان يراه الناس للباطن الخفي الذي يطلع عليه الله عزوجل.

فهذا هو أساس قضائه عزوجل في حق عبادة يوم القيامة، ودليل ذلك

قول الله عزَّوجلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ **[البينة: ٥]**

وقوله عزَّوجلَّ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ **[الكهف: ١١٠]**

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اتفق عليه الشيخان: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى».

والأدلة على هذه الحقيقة في كتاب الله وسنة رسوله كثيرة جداً.

ويعّبر علماء الشريعة الإسلامية عن الأحكام التي تتم على الصعيد الأول: **بالأحكام القضائية**، وعن التي يقضي بها الله عزوجل بين عباده أو في حقهم يوم القيامة: **بالأحكام الدينية أو الأحكام ديانة.**

ويعبر بعضهم عن الأولى: **بالشريعة**؛ أي: المتبعة في دار الدنيا، وعن الثانية: **بالحقيقة**؛ أي: التي ستطبق يوم القيامة.

ولا أهمية لاختلاف التعابير، ولا مشاحة في الاصطلاح، إن كان مضمون هذه التعابير والمصطلحات صحيحاً، فضلاً على أن يكون محل اتفاق عند سائر علماء الشريعة الإسلامية.

غير أن المشكلة التي كان لا بّد لها أن تؤرق فكر المسلم الصادق في إسلامه، والراغب حقاً في النجاة يوم القيامة هي مشكلة التوفيق بين الظاهر من أحكام السلوك الدينية، والباطن من الإخلاص لوجه الله فيها، والصدق في الالتزام بأوامره والانتهاء عن نواهيه ابتغاء وجهه وحده، وتطهير القلب من الغوائل التي لا يطلع عليها إلا الله ولا يحاسب عليها غيره، والتي تصد صاحبها عن بلوغ درجة الإخلاص في الأعمال والصفاء في النية..!

ذلك؛ لأن من السهل على الإنسان أن يتحلى، في ظاهره، بكثير من أوامر الله وأحكامه، دون أي انضباط حقيقي وجوهري بها، ودون أي إخلاص قلبي لها، ابتغاء الحصول على الحقوق والامتيازات الإسلامية في حياته الدنيوية ولا يكلفه ذلك أكثر من مصانعة للناس، وستر لبواطن الزغل والانحراف بظاهر من الاستقامة والالتزام

أما الأمر العسير حقاً، فهو السعي إلى تطويع الباطن لما قد تحلّى به الظاهر، بحيث يصبح ظاهر المسلم عنواناً على باطنه، بحيث إن تلبّس ظاهره بأعمال الصلاة أو النسك، كان قلبه منصرفاً بالخشية والخضوع إلى مراقبة اللّه وذكره، وإن عامل الناس بمقتضى الأحكام الشرعية فيما يبديه لهم من ظاهر معاملاته، كان في قلبه من خشية الله وتعظيمه مما يجعله يفيض إخلاصاً للناس فيما يظهر لهم، وما يضمن تحقيق كامل التناسق والتفاعل بين ما يُريهم من ظاهر أعماله وما يعامل الله به من باطن مشاعره وقصده.

أقول: إن تحقق هذا التناسق، يقتضي بالضرورة أن يتجرد القلب من آفات الكبر والأنانية والضغائن، وأن يتجرد عن سلطات الشهوات والأهواء الجانحة، ويتحرر من محبة الدنيا وزخرفها.

أجل؛ إن من العسير جداً تطويع القلب لهذا الذي لا يعسر أن تخضع له الجوارح والظواهر والصور، ذلك لإن إخضاع الظواهر يمكن أن يتم عن طريق التمرين والتمثيل، وبدافع من الطمع في الحصول على حظوظ

دنيوية عاجلة، ولكن ما الذي يخضع المشاعر والقلب بعيداً عن رؤية الناس ورقابتهم – لما خضعت له تلك الظواهر والأشكال؟ بل ما الذي يمكن أن يحرر القلب عن سلطان الشهوات والأهواء، وأن يجرده عن مشاعر الأنانية والأحقاد، حتى يمكن توجيهه بعد ذلك إلى مراقبة الله والمخافة من سطوته وعقابه؟

لم يكن غريباً أن تشغل هذه المشكلة بال المسلمين الراغبين في أن يكون إسلامهم مفيداً لهم في حكم القضاء الدنيوي، وأن يكون منقذاً لهم أيضاً في قرار الديانة الأخروية العائد إلى حكم الله عزوجل، أجل، لم يكن غريباً أن تشغل هذه المشكلة بال المسلمين الصادقين في إسلامهم، منذ صدر الإسلام إلى يومنا هذا. إنما الغرابة كل الغرابة هي أن يكون المسلم صادقاً في إسلامه، ثم لا تؤرقه هذه المشكلة ولا تخطر منه على بال.

ونحن لا نشك في أن القرآن يهدي إلى السبيل الأمثل لحل هذه المشكلة، وربط كل من الظاهر والباطن برباط السعي المخلص الصادق إلى مرضاة الله عزوجل، غير أن القرآن أجمل بيان الحل في كلمة قدسية واحدة كرر الأمر بها وشدّد في التنبيه إلى ضرورتها، هي (التزكية) ثم نبه إلى طريق واحد مرسوم لها، ألا وهو الذكر، ذكر الله عزوجل في كل حال، والابتعاد عن مطارح الغفلة وأسبابها. أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فزاد الأمر بياناً إذ ربط بين الإيمان والحب، ونبه إلى التلازم المستمر بينهما، وذلك في مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «ثلاث من كنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان ...» فذكر منهن: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» والحديث متفق عليه؛ فكيف تتم هذه التزكية، وهي فيما أجمع عليه العلماء، تطهير النفس من رعوناتها، وأهوائها الجانحة؟

وكيف السبيل إلى غرس محبة الله في القلب؟ ثم كيف السبيل إلى التخلص من الغفلات، وإيقاظ القلب والمشاعر إلى ذكر الله ومراقبته؟

ها هنا تكمن العقبة الكؤود، وعندها يتجلى معنى الجهاد الأكبر الذي ابتلى الله به الإنسان، وجعله مجلى حقيقة العبودية لله عزوجل.

وعند هذه المعضلة يبرز دور التصوف الذي لم ينب عنه إلى اليوم سواه.

وما ينبغي أن ننسى أننا إنما نتحدث عن مضمون هذه الكلمة، كما هو في ذهن جمهور علماء المسلمين لاسيما الصدر الأول، ولسنا نقف بأي اهتمام عند هذه اللفظة بحدّ ذاتها، كما هو دأب كثير من المستشرقين ومقلديهم.

وإذا أسقطنا هذه الكلمة المستحدثة أو المبتدعة عن الاعتبار، كان بوسعنا أن نتعرف على جوهر التصوف ومعناه، فهو ليس أكثر من سلوك السبل التربوية الممكنة، على درب هذا الجهاد الأكبر الذي ابتلى الله به عباده؛ وكان بوسعنا أيضاً أن نبصر بوضوح اتجاه همم المسلمين الصادقين في إسلامهم منذ عصر النبوة، إلى خوض غمار هذا الجهاد، جهاد النفس من أجل تزكيتها من الرعونات والأوضار، ثم ربط العاطفة القلبية بحقائق الدين وأحكامه، عن طريق ربطها بمحبة الله ورسوله.

*سبيل هذا الجهاد منذ عصر الصحابة فما بعد:

غير أن سبيل هذا الجهاد أمام أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، كان أقل وعورة بالنسبة إلى من جاء بعدهم، وذلك لأسباب، من أهمها رؤيتهم النبي صلى الله عليه وسلم، وجلوسهم إليه وسماعهم لكلامه وعظاته، فقد كان لذلك أثر كبير في غرس محبته في قلوبهم، وتأثير ذلك على نفوسهم، وهو الأمر الذي يستوجب بطبيعة الحال محبة كل ما يدعوهم إليه رسول الله، وإيثاره على كل ما قد يعارضه من نوازع الشهوات والأهواء. فمن ثم تجلت في حياتهم ظاهرة الطفرة التي لم نجدها ظهرت فيمن بعدهم. وأعني بها سرعة تحولهم عن أوضاعهم الجاهلية التي كانت متحكمة بهم عن راسخة في حياتهم، إلى أتم معاني الالتزام بعزائم الدين وضوابطه وأحكامه.

ومن هذه الأسباب، بساطة الحياة التي كانت تحيط بهم، فقد كانت مغرياتها محدودة، ومحرمّاتها معدودة، ومن ثم فقد كان سبيل التسامي فوقها، والتحرر من غوائلها أقصر وأيسر.

ولكن لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنجز الله وعده للمسلمين الذين أنجزوا وعدهم له، ففتح لهم البلاد، ووسع من آفاق الدنيا التي خضعت لهم، واندلقت إليهم الدنيا -بزينتها وزخرفها- من كل صوب، كان لا بدّ أن يتضاعف أمامهم الجهد في سبيل تزكية النفس ومجاهدتها، ذلك لأن القيود أصبحت أكثر وأثقل.

فكان أن انصرف كثير منهم إلى استنباط أصول ومناهج تربوية يأخذون أنفسهم بها، ليتساموا بها شيئاً فشيئاً فيتحرروا من رعونات النفس وأمراضها الباطنية.

ولم يكن في مناهجهم وأصولهم التربوية تلك، ما يتعارض مع كتاب الله وسنة رسوله، بل كان كله مأخوذاً منه مخرجاً عليه، وكانوا في صنيعهم الذي فعلوه لا يختلفون عن أولئك الذين استشعروا الحاجة، فاستنبطوا قواعد العربية من لسان العرب وسليقتهم، وعن أولئك الذين استشعروا الحاجة فاستخرجوا قواعد الأصول في فهم النصوص من اجتهادات الصحابة، وعن أولئك الذين استشعروا الحاجة فاستخرجوا قواعد البلاغة العربية من كلام الله عزوجل.

ولا نزال نذكر في مقدمة من أقدموا على هذا الصنيع جلالة وسبقاً، الحارث المحاسبي (٢٤٣ت)، وأحمد بن أبي الحواري (٢٤٦ت)، والجنيد البغدادي(٢٩٨ت)، وإنما درج هؤلاء فيما كتبوا ونظّموا على منوال من سبقهم إلى ذلك سلوكاً وعملاً، من جلة التابعين ومن بعدهم كالحسن البصري، وسفيان الثوري، وعطاء بن أبي رباح. وما خرجوا في شيء من أصولهم التربوية على ميزان الكتاب والسنة قط، ولكن إما أن يكون دخوله في هذا الميزان صريحاً ومباشراً، وإما أن يكون اجتهاداً واستنباطاً.

ونذكِّر بما اتفق عليه العلماء، من أن كل ما يتوقف عليه الواجب يصبح واجباً، وكل ما يتوقف عليه المندوب يكون مندوباً، مالم يكن هذا المتوقَّف عليه منهياً عنه، نهياً لا يقل في أهميته والجزم به من ترك الواجب المنصوص عليه.

إذن، فمهما كانت السبل التربوية غير منصوص عليها في قرآن أو سنة، نصاً مباشراً، ولكنها تعين في تزكية النفس وتصعيد العاطفة والوجدان، فإنها تأخذ حكم الغاية التي تتحقق من ورائها، وهذه الغاية داخلة كما يصرح الإمام ابن تيمية رحمه الله في أصول الإيمان وقواعد الدين. فالسعي إلى التحقيق بها واجب على جميع الخلق باتفاق الأئمة.

وقد علمنا أن هذه الأصول إنما تدخل كلها في نطاق الأعمال الباطنة، كمحبة الله، والخوف منه، والرضا عنه، والإخلاص له، والتوكل عليه، والزهد في كل ما يحجب أو يبعد عنه، وإنما مدار ذلك كله على العاطفة والوجدان.

فلما أخذ هؤلاء الربانيون أنفسهم بالسبل التربوية المتنوعة للتحقق بهذه الصفات، وأرشدوا إلى ذلك عامة الناس وخاصتهم، وسلك الكثير منهم هذا السبيل - نشأ عن تفاوتهم في السير والسبق إلى ذلك، ومدى الاستمرار عليه ما سمي بالمقامات، كالأحوال، والفناء، والبقاء، وأطلقوا على من أخذوا أنفسهم بهذه السبل التربوية اسم: السالكين.

غير أن هذا السلوك، قد أدركه هو الآخر، ما أدرك أنواع العلوم والمعارف الإسلامية الأخرى من أدواء البدع والزغل والانحراف عن خط الاستقامة والقصد، فامتزج بالحق الذي ندب إليه العارفون والربانيون، كثير من الباطل الذي روج له الجاهلون آنًا، والفسقة والزنادقة آنًا آخر.

ولسنا هنا بصدد الكشف عن تفاصيل هذه البدع والانحرافات التي تسللت إليه، فإن لذلك مجالاً آخر... ولكن المهم أن نعلم أن هذا السلوك التربوي يمثل لباب الدين، وأن المسلمين الصادقين في إسلامهم ما زالوا يتلمسون السبيل الشرعي إليه منذ عصر الصحابة إلى يومنا هذا، بقطع النظر عن مظاهر الانحراف التي قد تتربص به.

الصوفية وانتشار الإسلام

قال الأستاذ صبري عابدين رحمه الله تعالى في حديثه في ندوةِ لواء الإِسلام في«**موضوع الصوفية وعلاقتها بالدين**»:

(شهدْتُ بنفسي كيف حال الصوفية في السودان وأريتريا والحبشة والصومال، إن السلطة الصوفية للسيد الميرغني لها اعتبارها، وبصورة خاصة ولاية القاضي في أريتريا لا توليها الحكومة، إنما هو يولي القاضي والخطيب والمؤذن، وله حق الولاية الدينية بصفته رئيس الطريقة الصوفية.

والواقع أن الصوفية ينشرون الإِسلام في العالم، وأذكر لكم أنه منذ خمسين عاماً، كتب الشيخ البكري كتاباً ذكر فيه نقلاً عن المبشرين يقول: إن هؤلاء يقولون: ما ذهبنا إلى أقاصي المناطق البعيدة عن الحضارة والمدنية في أفريقيا وأقاصي آسيا إلا وجدنا الصوفيَّ يسبقنا إليها، وينتصر علينا.

ليتَ المسلمين يفهمون ما في الصوفية من قوة روحية ومادية، فجنودهم مجندون للإِسلام، رأيتُ على حدود الحبشة والسودان وأريتريا بعثة سويدية للتبشير، ووجدْتُ إلى جانبهم أكواخاً أقامها الصوفيون، وأفسدوا على المبشرين السويديّين إقامتهم أربعين سنة.

ولذلك أرجو أن نتعاون لإِخماد هذه الحركات التي تؤذينا دينياً وسياسياً، وإن الذين يحملون على الصوفية ليسوا فوق مستوى الشبهات، بل هم غارقون في الشبهات..

إلى أن قال: أكبرُ المصائب التي أصابت المسلمين أنهم لم يأخذوا بالإِسلام كله، أما الصوفية فقد ألزموا أنفسهم أن يأخذوا بالإِسلام كله، بل زادوا عليه، إِنهم ألزموا أنفسهم ألاَّ يأخذوا بالرخص بل بالعزائم، مع أن الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه؛ لماذا؟

لأن مذهبهم يقوم على الزهد بالمعنى الذي يفهمه العلم، وأزيد على ذلك أن أساس الزهد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم زاهداً في هذه الحياة ولذائذها.

عاش الرسول صلى الله عليه وسلم وانتقل إِلى الرفيق الأعلى ولم يأكل رغيفاً مرقَّقاً، ولا أكل على خوان. فرسول الله صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى للخلفاء الراشدين ولِمَنْ تبعه وللمسلمين كافة.

والصوفية قد ألزموا أنفسهم، كما نصوا على ذلك في كتبهم، على أنْ لا يكون بينهم صوفياً إِلا من استمسك بالكتاب والسنة، ووضعوا لذلك أُصولاً في كتبهم: «الرسالة القشيرية» لأبي القاسم القشيري، و«إحياء علوم الدين» للغزالي، وكتاب «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصفهاني، وكتاب «قواعد التصوف» لأحمد زروق.

وإِنا نقول: إن الذين يبحثون في بعض العلوم وينتقدونها، وينكرونها وهم لم يطلعوا عليها، مثلهم مثل رجل لا يفهم في الطب شيئاً فينكر الطب، وكالإِسكافي الذي ينكر الهندسة. وفي مصر هنا، في الوقت الذي جاءت جيوش الصليبية إلى دمياط، كان للصوفية أمثال أبي الحسن الشاذلي وعز الدين بن عبد السلام، وأبي الفتح ابن دقيق العيد، وآخرين من العلماء خدمة جليلة في مقاومة الصليبيين)[1] .

---

(١) [الأستاذ صبري عابدين في حديثه في ندوةِ لواء الإِسلام في موضوع الصوفية وعلاقتها بالدين: مجلة لواء الإِسلام - العدد العاشر - السنة التاسعة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م ندوة لواء الإِسلام: الصوفية وعلاقتها بالدين ص٦٤٥ -٦٤٧]

صفوة القول

غياب التصوف هو المسؤول عن جُلِّ مشكلاتنا اليوم

بل هو المسؤول أيضاً عن البدع والانحرافات التي تسللت إلى جوهر التصوف وحقيقته...؟

فلو أن النفوس زكيت وتطهرت من أهوائها ورعوناتها وعصبيتها -وهذا هو لب التصوف ومعناه- لما تحول التصوف عند أرباب هذه النفوس إلى مطية لشهرة، أو حرفة مال، أو إطارٍ لأبهّة، أو خندق لمحاربة العلم والانضباط بقيوده وأحكامه.

لو زُكِّيت النفوس، كما أمر الله في محكم تبيانه، لما فرق المسلمون أنفسهم فئات وجماعات، ثم انهالت كل جماعة على الأخرى توسعها انتقاضاً وشتماً، بل وتكفيراً في كثير من الأحيان.

ولو زكيت النفوس لما انتشرت آفة حب الرئاسة، مقنّعة بأقنعة شتى بين الفئات والجماعات المسلمة، فتقارعت الرؤوس وتشاحنت النفوس، ووقع الإسلام الضحية الأولى لذلك، فيما بينهم.

ولو زكيت النفوس هذه التزكية التي لا يدور إلاّ على محورها التصوف الحقيقي.. لما كان نصيب الإسلام من جهودنا وقفاً عند حدود الدعاوي والأقوال، ولما نسينا تحرّقنا وآلامنا على الإسلام، عند ظهور بارقة من بوارق الشهرة أو الرئاسة أو المال.

ولو زكيت النفوس لفاضت القلوب حبّاً لله عزوجل، وخوفاً ومهابة منه؛ ولأثمر هذا الحب حباً لعباد الله وشفقة عليهم، والحب في الله من أرقى درجات التوحيد ومعانيه، و لشاع فيما بينهم الإيثار بدلاً من الأثرة، وتآلفت أفئدتهم، بدلاَ من التناكر والتدابر، و لجاءت نصائح بعضِهم لبعض نورانيّة مؤثرة تستقر في أعماق القلوب وتفعل فعلها الهادي في طوايا النفوس.

تزكية النفوس هذه، من منا يتسأل -على الرغم من أهميتها – عن مصيرها في مجتمعاتنا، ومن منا يهتم بوضع السبل التربوية الكفيلة بها؟

صحيح أن السبيل إلى هذه التزكية الواجبة، قد تسلل إليها كثير من البدع والانحرافات على أيدي كثير من السالكين والموجهين، أو ربما التلامذة والمريدين. ولكن فما الذي يجب أن يفعله العلماء المخلصون الرقباء على دين الله حيال ذلك؟

إن ما يصنعه بعض أهل العلم هو استنكار هذا السلوك كله، والتحذير من الأخذ بأسباب هذه التربية من حيث هي؛ لأن بدعاً أخذت تشيع فيها ولأن أخطاء ظهرت في حال أو سيرة بعض المشتغلين بها...! حتى استهان الناس بتربية هذا الجانب من الكيان الإنساني أيما استهانة، وانتهوا إلى حالة حسبوا فيها أن إسلام المسلم يتحقق بإدراك العقل ويقين الفكر، أما عواطفهم فبقيت طليقة من أي قيد أو ارتباط وجداني، فكان أن استعمرها وتحكّم بها حب الشهوات والأهواء وهيمنت عليها رعونات النفس ورغائبها.

ونحن نقول: أما البدع والانحرافات فما من ريب أن على المسلمين الابتعاد عنها والتحذير منها، ولكن علينا، ونحن نحارب هذه البدع ونحذّر منها، أن نبقي على الأساس السليم وأن نحافظ على جوهر الاتباع، وإلاّ فأي خير حققه ذاك الذي يدمرّ بالسلاح الذي يحارب به البدعة، جوهر الدين وأساسه؟ وقد علمنا مما أجمع عليه المسلمون أن هذه التربية الباطنية، مأمور بها في حق الخاصة والعامة.

أي خير حققه ذاك الذي حارب الذباب المتساقط على وجه صاحبه، بصخرة طحنت رأسه قبل أن يتطاير الذباب عنه...؟!

والشباب المسلم الذي يتكاثر بفضل الله في كل بقعة من أرضه الواسعة، يظّل يسأل تحت إلحاح فطرته الإسلامية الظامئة: كيف السبيل إلى أن أسمو على نفسي وأهوائها في هذه الأزمنة العصيبة وسط هذه

المغريات المتأججة؟ كيف السبيل إلى أن أشعر بلذة المناجاة للخالق إذا وقفت بين يديه في صلاة أو جلست اقرأ قرآناً؟ كيف أصنع لأرقى بمشاعري إلى الرتبة التي أعبد الله فيها كأنني أراه؟ كيف أجعل محبة الله ملء كياني حتى لا أحب مع الله سواه، وكيف أجعل المخافة منه ملء شعوري حتى يذوب من قلبي الخوف من كل سواه؟

نعم، إنا لنعلم أن الشباب المسلم الظامئ يظل يسأل هذه الأسئلة، ولا من مجيب، لأن الذين عليهم أن يجيبوا، منهمكون في ملاحقة البدع والسعي للقضاء عليها...!

ولكن فلنعلم أن هؤلاء الشباب إن لم يجدوا أنفسهم أمام أجوبة علمية سليمة تروي ظمأهم الإسلامي، فلسوف يقعون -شئنا أم أبينا- في تيار هذه السبل التربوية القائمة على ما فيها من بدع وأخطاء لأن شيئاً ما خير من ولا شيء، إن لم يؤمن بذلك العقل دائماً انقاد له الشعور والوجدان غالباً.

وتلك هي حال معظم الذين يقبلون إلى الإسلام اليوم في مختلف بقاع أوربا وأمريكا، هذا هو السر في تعشقهم للتصوف الذي وجدوه أمامهم، دون أن يجدوا، البديل الذي هو أفضل منه..!

إذن؛ فإننا لا نعدو الحقيقة عندما نقول: إن جلّ مشكلات مجتمعاتنا الإسلامية اليوم إنما يكمن في غياب هذه التربية الوجدانية التي هي العمود الفقري في جوهر الإسلام.

غير أننا لا نلح من خلال هذا الكلام على الاهتمام بكلمة التصوف، والتسابق إلى الطرق التقليدية المتبعة تحت هذا العنوان.

بل لقد كان مسمى هذا الذي يطلقون عليه اسم التصوف، في صدر الإسلام، حقيقة لا اسم لها، إلا ما سماها الله به من التزكية والتنزه عن باطن الإثم، ثم عاد اليوم اسماً لا مسمى له -على الغالب- إلا جملة وظائف وأعمال، هي بالصنائع والحرف المتوارثة أشبه منها بأي شيء آخر.

وإنما نطلب من دعاة الاتباع ومنكري الابتداع إعادة كل شيء إلى وضعه الذي وضعه الإسلام فيه، دعوا اسم التصوف جانباً واستعيدوا مسماه القديم، استعيدوه التزاماً وسلوكاً في حياة المسلمين.

وإننا لواجدون أصول هذه التربية ومناهجها في كتاب ربنا وسنة نبينا عليه الصلاة والسلام، فإن أتيح لنا معهما المرشد المخلص الناصح فذاك، وإلا فلنلتزم بما يأمرنا به -في صدد هذه التربية- كتاب الله وسنة رسول الله، وأمره في كل منهما واضح وصريح.

لقد ندبنا القرآن إلى القيام بالأسحار، راكعين ساجدين، مكثرين من الاستغفار بضراعة وذل؛ فهذا اول جزء من المنهاج المرسوم.

ولقد أمرنا القرآن أيضاً بالإكثار من ذكر الله في نفوسنا ودون الجهر من القول، ونهانا أن نكون من الغافلين، ثم زاد الأمر تأكيداً في أوقات البكور و الآصال، نكثر فيهما من التسبيح والتحميد بقلب خاشع حاضر؛ وهذا جزء ثان من المنهاج.

ولقد أوصانا القرآن بالإكثار من تلاوته بآداب لا مجال في هذا المقام لذكرها، وقد ذكر العلماء أن من أعظم أنواع الذكر وأبّرها الاشتغال بتلاوة القرآن؛ فهذا جزء ثالث من هذا المنهاج.

ولقد نهانا كتاب ربنا عن أكل أموال الناس بالباطل، وعن أن نغذي جسومنا بشيء من الحرام، وأكد نبينا عليه الصلاة والسلام أن الجسم الذي غذي بالحرام فالنار أولى به، وقد علمنا أن أكل الحرام يغلف القلب بالسواد ويجلّله بالران، فلا يتفتح لموعظة واعظ ولا يهزه ترغيب ولا يخيفه ترهيب.. وهذا جزء آخر من المنهاج.

ولقد أمرنا كل من كتاب ربنا عزوجل وسنة نبينا عليه الصلاة والسلام، بمصاحبة الأخيار، والابتعاد عن مجالسة الأشرار، فإن مصاحبة الأخيار تنقل إشراق أفئدتهم إلى قلبك وإن نظرهم إليك ينير طوايا نفسك.

وإن في مجالسة أصحاب رسول الله له والآثار التي اكتسبوها من ذلك لأكبر شاهد على ما نقول، ولا ريب أن النقيض يورث النقيض؛ فهذا جزء آخر، وليس أخيراً من المنهاج.

ثم إن كلاً من كتاب ربنا وسنة نبينا قد أمرنا بالإكثار من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم دون قيد من زمان بعينه أو مكان بعينه، إلا ما أكدته السنة من الترغيب في الإكثار من الصلاة عليه في اليوم والليلة الزهراوين، يوم الجمعة وليلتها، وقد أجمعت الأمة على أن الإكثار من الصلاة على سيدنا رسول الله من أفضل ما يجلو القلب ويطهر النفس.. وهذا جزء آخر، وليس أخِيراً من المنهاج.

فمن هذه الأوامر والنواهي يتكامل منهاج تزكية النفس وتربية الوجدان، وهي لب ما جاء به كتاب الله وسنة رسول الله، وباتباع هذا المنهاج تنمو محبة الله في القلب، وتنتشر مهابته في جوانب النفس، وقد يظهر في حياة المسلم ما يسمى بالأحوال والمقامات، ويسمو بالمسلم فوق المشكلات التي ألمحنا إلى نماذج منها. فأين هم الذين يهتمون بالدعوة إلى سلوك هذا السبيل، ويصوغون منها بنياناً تربوياً يأخذون به الشباب والطلاب على طريق الدعوة إلى الإسلام...؟

وهلا اهتموا بإشادة هذا البنيان الإيجابي قدر اهتمامهم بذلك الجانب السبي ألا وهو محاربة البدع والأخطاء؟

وصفوة القول، أن سائر مشكلاتنا النفسية والاجتماعية التي ترزح وتئن مجتمعاتنا الإسلامية تحت وطأتها، إنما هي وليدة إعراضنا عن تربية النفس وإصلاح القلب، بوسائلها المشروعة والمعروفة التي طالما نبّه إليها الربانيون من علماء هذه الأمة خلال القرون والأجيال.

ومهما بقينا معرضين عن الإقبال إلى هذه التربية بجدّ وإخلاص، فإن مشكلاتنا هذه ستظل في تكاثر وانتشار، وسيظل الإسلام يُنْتَقَص منه في نفوسنا وحياتنا، حتى لا تبقى منه إلا رسوم وأشكال، بل سيزداد انتقاصاً حتى لا يبقى منه إلا آثار و أطلال.

قال حجة الإسلام الإمام الغزالي رضي الله عنه بعد أن اختبر طريق التصوف ولمس نتائجه وذاق ثمراته: (الدخول مع الصوفية فرض عين؛ إذ لا يخلو أحد من عيب إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام).

وقال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: (من لم يتغلغل في علمنا هذا.. مات مُصرَّاً على الكبائر وهو لا يشعر).

وقال الإمام السيوطي رحمه الله تعالى: (وأما علم القلب ومعرفة أمراضه من الحسد، والعجب، والرياء ونحوها، فقال الغزالي: إنها فرض عين).

ويقول العلامة ابن عابدين رحمه الله تعالى: (إن علم الإخلاص والعجب والحسد والرياء فرض عين، ومثلها غيرها من آفات النفوس: كالكبر والشح والحقد والغش والغضب والعداوة والبغضاء والطمع والبخل والبطر والخيلاء والخيانة والمداهنة والاستكبار عن الحق والمكر والمخادعة والقسوة وطول الأمل ونحوها مما هو مبين في ربع المهلكات من «الإحياء»، قال فيه: ولا ينفك عنها بشر، فيلزمه أن يتعلم منها ما يرى نفسه محتاجاً إليه، وإزالتها فرض عين ولا يمكن إلا بمعرفة حدودها وأسبابها وعلاماتها وعلاجها، فإن من لا يعرف الشر يقع فيه).

وقال الإمام اللقاني رحمه الله تعالى مشيراً إلى أهمية الصوفية: (والإحاطة بفضائلهم وضبط رعاية أحوالهم متعذرة، وأنواع كمالاتهم على تمام الاحتفال بنقلها متكثرة، فاضت بها بحار التفسير والحديث، وقذفت

بزبد فيضانها كتب التصوف وعلم الأخلاق في القديم والحديث؛ ويكفي الموفق الإشارة، ولا ينفع المخذول تطويل العبارة)[1].



(١) ينظر «النصرة النبوية» على هامش «شرح الرائية» للفاسي (ص ٢٦)، «الأشباه والنظائر» (ص٤١٦)، «هداية المريد» (ص١٣٥٦)، «حاشية ابن عابدين» (١/ ٤٣)، «حقائق التصوف» (٣٥)، «قضايا ساخنة» للإمام البوطي (ص٣٨٧).


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفصل الأول:

أصول التصوف

ومبادئه وأهم قواعده

المبحث الأول : أصول التصوف

المطلب الأول:

مقاصد التصوف

للإمام النووي رضي الله عنه

أصول طريق التصوف

وهي خمسةٌ:

١. تقوى الله في السر والعلانية.

٢. واتباع السنة في الأقوال والأفعال.

٣. والإعراض عَنْ الخلق في الإقبال والإدبار.

٤. والرضا عن الله تعالى في القليل والكثير.

٥. والرجوع إلى الله في السراء والضراء.

فتحقيق التقوى :بالورع والاستقامة.

وتحقيق اتباع السنة :بالتحفظ وحسن الخُلُق.

وتحقيق الإعراض عن الخلق :بالصبر والتوكل.

وتحقيق الرضا عن الله :بالقناعة والتفويض.

وتحقيق الرجوع إلى الله تعالى :بالشكر له في السراء والالتجاء إليه في الضراء.

***

وأصول ذلك كله خمسة :

١) علو الهمة.

٢) وحفظ الحرمة.

٣) وحسن الخدمة.

٤) ونفوذ العزيمة.

٥) وتعظيم النعمة.

فمن علت همته .. ارتفعت رتبته.

ومن حفظ حرمة الله ..حفظ الله حرمته.

ومن حسنت خدمته .. وجبت كرامته.

ومن نفذت عزيمته .. دامت هدايته.

ومن عظم النعمة .. شكرها، ومن شكرها .. استوجب المزيد.

***

وأصول العلامات خمسة:

١. طلب العلم للقيام بالأمر.

٢. وصحبة المشايخ والإخوان للتبصر.

٣. وترك الرخص والتأويلات للتحفظ.

٤. وضبط الأوقات بالأوراد للحضور.

٥. واتهام النفس في كل شيء للخروج من الهوى والسلامة من العطب.

فطلب العلم آفته: صحبة الأحداث سناً وعقلاً وديناً مما لا يرجع إلى أصل ولا قاعدة.

وآفة الصحبة: الاغترار والفضول.

وآفة ترك الرخص والتأويلات :الشفقة على النفس.

وآفة اتهام النفس :الأنس بحسن أحوالها واستقامتها.

وقد قال تعالى: ﴿وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٠]

❊❊❊

وأصول ما تداوى به علل النفس خمسة:

١. تخفيف المعدة بقلة طعام والشراب.

٢. والالتجاء إلى الله تعالى مما يعرض عند عروضه.

٣. والفرار من مواقف ما يخشى الوقوع فيه.

٤. ودوام الاستغفار مع الصلاة على النبي ﷺ آناء الليل وأطراف النهار باجتماع الخاطر.

٥. وصحبة من يدلك على الله.

****

فصل في بيان الوصول إلى الله تعالى

وهو:

١- بالتوبة من جميع المحرمات والمكروهات.

٢- وطلب العلم بقدر الحاجة إليه.

٣- والملازمة على الطهارة.

٤- وأداء الفرائض الرواتب في أول وقتها جماعة.

٥- وملازمة ثمان ركعات الضحى، وست بين المغرب والعشاء، وصلاة الليل، والوتر.

٦- وصوم الاثنين والخميس، وثلاثة أيام البيض، والأيام الفاضلة.

٧- وتلاوة القرآن بالحضور والتدبر.

٨- والإكثار من الاستغفار والصلاة على النبي ﷺ .

٩- **وملازمة أذكار السنة صباحاً ومساء**، ومنها:

«اللهم بك نصبح، وبك نمسي، وبك نحيا، وبك نموت، وإليك النشور» صباحاً[١]

وتستبدل «المصير» بـ«النشور» مساءً.

«أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله، والكبرياء لله، والعظمة لله، والخلق والأمر والليل والنهار وما سكن فيهما لله»[٢]

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٨٨)، وأبو داود (٥٠٦٨)، وابن ماجه (٣٨٦٨).

(٢) «عمل اليوم الليلة» لابن السني(٣٨) .

«اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر» ثلاثاً[1]

«اللهم إني أصبحت أُشهدك، وأُشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك، أنك أنت الله لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك» أربعاً[2]

«رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبياً ورسولاً» ثلاثاً[3]

{آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ❋ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين}
[سورة البقرة، الآيتان: (٢٨٥)(٢٨٦)]

{فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم} [سورة التوبة، الآية ١٢٩] سبعاً.

{فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ❋ وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون ❋ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون}[سورة الروم، الآيات ١٧ – ١٩]

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٧٣) .

(٢) أخرجه أبو داود(٥٠٧٨) .

(٣)أخرجه الترمذي (٣٣٨٦)، وأبو داود(٥٠٧٢) .

وقراءة سورة يس.

«أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» ثلاثاً.

{لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون * هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم} [سورة الحشر، الآيات ٢١ – ٢٤]

و سورة الإخلاص والمعوذتين، ثلاثاً ثلاثاً[١].

«بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم» ثلاثاً.[٢]

«أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وان يحضرون» ثلاثاً[٣]

«أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم أتوب إليه» ثلاثاً[٤].

«سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته» ثلاثاً[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٧٠)، النسائي(٥٠٨٢) .

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٨٨)، (٥٠٩٨)، الترمذي (٣٣٨٥)، ابن ماجه(٣٨٦٩) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٠٩)، وابن السني(٤٩) .

(٤) أخرجه عمل اليوم والليلة لابن السني(٨٢) .

(٥) أخرجه مسلم(٢٧٢٦) .

وإذا اتسع الوقت فقل:

«سبحان الله، الحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» مئة مرة.

«ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم كذلك» مئة مرة[1].

«لا إله إلا الله الملك الحق المبين» كذلك مئة مرة.

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»[2] كذلك مئة مرة أو ثلاثاً.

«اللهم صلِّ على سيدنا محمد عبدك ونبيك، وحبيبك ورسولك النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلِّم» ثلاثاً، أو كذلك مئة مرة.

وفي هذا القدر كفاية لذوي العناية، والله الموفق للهداية، وهو يهدي السبيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل، آمين.

* * *

(١)أخرجه البخاري (٦٣٨٤)، ومسلم.(٢٧٠٤) .

(٢)أخرجه البخاري (١١٥٤)، وابن السني(١٠) .

